مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- من بيداغوجيا الكفايات إلى بيداغوجيا الإدماج
- بيداغوجيا النجاح: قراءة في المنطلقات والأهداف
- اللغة والأدب: أية علاقة؟
- المراهقة والتحولات الأسرية في الوسط القروي
- القراءة المنهجية للنص النظري: إشكالات وتساؤلات
- فشل الإصلاحات التعليمية بالمغرب: الأسباب والحلول

العدد الواحد والأربعون- سبتمبر 2009

التعليم التنموي للغة العربية معيقات وحلول

• ذ. بدر ابن الراضي

باحث في اللسانيات التطبيقية
كلية الآداب/ مكناس

مقدمة

تعتبر اللغة وعاء الثقافة وأداة فعالة في التطور الفكري والرقي الحضاري للأمم، كما أنها تشكل عاملا أساسا في تحديد نوع التنشئة الاجتماعية. وبإمعان النظر في واقع اللغة العربية بالمغرب مثلا، نجد بعض المعيقات التي تحول دون مشاركتها ضمن مقاييس «المؤشر التركيبي للنمو البشري»، مما يستدعي رسم معالم سياسة لغوية بديلة تحترم الهوية الوطنية وتكون منفتحة على المعرفة الإنسانية.

1. أهمية اللغة ودور التنشئة الاجتماعية

1 ـ 1. أهمية اللغة

غالبا ما يتم الحديث عن العلاقة الثنائية بين اللغة والكلام، حيث يعتبر دوسوسير اللغة نسقا اجتماعيا مؤسسيا يسمح بممارسة القدرة على استعمالها، أما الكلام فهو فعل فردي إرادي محقق لتلك القدرة. وفي هذا السياق، يؤكد تمام حسان على اعتبار «الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة»[1]. وهذا ما يمكن تفسيره بالنظر إلى أن اللغة اجتماعية في الوضع وفردية في الاستعمال.

وتعتبر اللغة الوسيلة الأساسية للتواصل. تبعا لذلك، فهي تمثل مكونا جوهريا للتواصل الثقافي، حيث تعد أداة تعبير عن الثقافة وسجلا خاصا لها. وهذا التلازم الحقيقي بين اللغة والثقافة يدفع إلى الحديث عن قضية الهوية، حيث تعتبر اللغة هي الغلاف الأم لكل كائن، ذلك أنها تنقل الخصائص الأساسية لوجوده ومجتمع انتمائه (غرانغيوم، 5 : 1995 ـ 6).

وهذا يؤكد الدور الذي تحتله اللغة في عمليتي التنمية الحضارية والتبادل الثقافي بين الشعوب، كما أنها تعتبر مرآة تفكير المجتمع التي تعكس خصائص بنياته الفكرية وأنظمته المفهومية وأنماطه السلوكية.

كما يدفع هذا إلى الحديث عن أهمية السيادة اللغوية التي تمثل مفتاح السيادة الثقافية لأمة ما، حيث نجد أن الأمم التي تحترم ثقافتها تولي اهتماما كبيرا للغتها الرسمية. مثلا، نجد في أمريكا عشرات الأجناس تتكلم عشرات اللغات، لكن رمز السيادة يتمثل في استعمال اللغة الإنجليزية الموحدة. كما تخلت المؤسسة التعليمية في الفيتنام بعد الاستقلال عن لغة المستعمر في ظرف تسعة أشهر، وفرض اجتياز الاختبارات في الطب باللغة الوطنية الفيتنامية (الصوري، 12 .9 : 2005). ومن هنا، يمكن الدعوة إلى ضرورة إدخال المعيار اللغوي ضمن معايير قياس «المؤشر التركيبي للنمو البشري» باعتباره يعكس درجة نضج المجتمع الفكري ورقيه الحضاري (الفاسي الفهري، 29 : 2003).

ومن الناحية التاريخية، فقد أثبتت اللغة العربية فاعليتها الوظيفية التي تمثل لغة معيارية موحدة للهجات المحلية الموجودة حينئذ في البلاد العربية، واستعملت أداة لإيصال المعرفة والحضارة، كما أنها تمثل في حاضرنا اليوم الوسيط الاتصالي الأساس بين الشعوب العربية الإسلامية وغيرها من الشعوب الناطقين بغيرها.

2 ـ 1 . اللغـة و التنشئـة الاجتماعيـة

تعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية، بحيث ينعكس الإطار الاجتماعي الذي تنتمي إليه بكل ضغوطه ومتطلباته في قوالبها البنيوية وأنساقها الدلالية.

وتمثل اللغة الوسيلة الأولى التي يدخل الطفل بواسطتها في عملية التنشئة الاجتماعية، بحيث يحصل على صفة عضو في محيطه العائلي عن طريق الكلمات التي يسمعها ثم يرددها. وهذا الاندماج الاجتماعي يفرض على الطفل أثناء قيامه بفعل التكلم التخلي عن عالمه المتخيل المتمثل في الأشياء، بحيث لا يقول منه إلا ما تسمح له به الكلمات التي منحه إياها محيطه، ورغم ذلك، فهو يكتسب جانبا هاما يتمثل في تسمية كل ما يحيط به.

وتشبه الصورة الصغرى لعملية تعلم الطفل للغة داخل العائلة ما يتكرر في كل مرحلة من مراحل التنشئة الاجتماعية، حيث يقبل التكلم بلغة جماعته، فيفقد فردانيته، وذلك من أجل الحصول على اعتراف بعضويته داخلها، وهذا يكسبه انتماء واقعيا للهوية الثقافية للغة التي يتعلمها (غرانغيوم، 139 ـ 138 : 1995).

وهكذا، فإن اللغة أداة تعبير عن وظائف اجتماعية مختلفة، والتي تنعكس وجوبا على أشكال بنياتها وأنظمتها الصوتية والنحوية والمعجمية والدلالية. وهذا ما يجعل اللغة قانونا معياريا يفرض على الطفل تمثله حتى يحصل على هوية اجتماعية داخل الجماعة التي ينتمي إليها.

وغير خاف، أن هناك تفاوتا لسانيا بين الطبقات الاجتماعية، وهذا ما أكدته أعمال برنشتاين»

(Bernsteinالتي انصبت على الدراسة المقارنة لمستوى القدرة اللفظية Verbal Competence بين الأطفال المدرسين ومعلميهم، وكذا فيما بين المتعلمين أنفسهم بفعل الفارق الاجتماعي الذي يفصل بينهم (Bouton, 1979 : 80). كما أكد برنشتاين على الفارق الموجود بين الأطفال تبعا للطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، حيث إن المنحدرين منهم من الأوساط الأكثر حظوة يكونون من وجهة النظر الثقافية أكثر جدارة بتقبل الإكراهات الثقافية للطبقة المنتمين إليها (Bouton, 1979 : 85)، وهذا ما دفعه إلى اقتراح ما سماه افتراض النقصان.

بناء على ما سبق، يعد الوسيط اللغوي الوسيلة المثلى للاندماج الاجتماعي والانصهار الثقافي، كما أن ضوابط الانتماءات الطبقية الاجتماعية تحدد استعمال الأفراد لمستويات قدرتهم اللغوية.

إن اللغة تمثل الوظيفة التواصلية بالأساس، وتحتل دورا هاما في التنمية الحضارية، وتشكل أساس السيادة الثقافية لأمة ما. وهذا ينطبق على اللغة العربية مثل غيرها، والتي تعترضها مشاكل تعيق قيامها بالدور التنموي المطلوب.

2 . الدور التعليمي التنموي للغة العربية

2-1. المعيقات

1-1 ـ 2. الازدواجية اللغوية

يعرف المغرب العربي، مثل باقي المجتمعات العربية، ازدواجية اللغة الكلاسيكية واللغة الأم، وغالبا ما تدعى هذه الأخيرة بالدارجة التي تضم عدة لهجات تختلف باختلاف الجهات والمناطق. وهكذا، أصبح ينظر إلى العربية الكلاسيكية باعتبارها لغة للخارج مقابل اللهجة التي تمثل لغة الداخل، تتميز بالحميمية لأنها مؤسسة على التعبير الشفهي الخالص، وهذا ما يجعلها تنفلت من الرقابة الأكاديمية التي تخضع لها العربية الفصحى (غرانغيوم، 123 ـ 122 : 1995).

إن هذه الازدواجية اللغوية Diglossia بين العربية الفصحى واللغة الأم تمثل أحد العوائق الرئيسية في سبيل النمو اللغوي للطفل، ذلك أن اللغة الأولى تعيق تعلم اللغة الثانية، أي اللغة العربية. ويضرب الفاسي الفهري (1999) المثل بنموذج الكيبك لتجاوز مشكل الازدواجية، حيث لم يكن الأنجلوفونيون هناك راضين عن نتائج تعلم أبنائهم للفرنسية، التي كانت تعتبر لغة ثانية بالنسبة لهم، بالطرق التقليدية. ويقوم النموذج الذي أخذ به شعب الكيبك على مبدإ الإغماس المبكر Early Immersion، والذي يهدف إلى استغلال قدرات الأطفال وانفتاحهم وإقبالهم على تعلم اللغات بشكل مماثل جو اكتساب اللغة الأولى، دون أن يعيق نموهم في مجالات أخرى، فيتعلم الأطفال اللغة الفرنسية ويتخاطبون بها في المدرسة، ثم يوظفون اللغة الإنجليزية في البيت (الفاسي الفهري، 30 : 1999).

وهكذا يمكن تجاوز الازدواجية اللغوية باعتماد إغماس الطفل مبكرا وسط محيط تربوي تكون الفصحى وسيلته الأساس.

1-2 ـ 2. الثنائية اللغويـة

ويرتبط بالازدواجية كذلك مشكل الثنائية اللغوية Bilingualism التي تربط في المغرب مثلا بين اللغة العربية واللغة الفرنسية، حيث نجد أن هناك إقرارا فعليا، استنادا إلى الدستور، بثنائية لغوية وظيفية، لكن الغالب عليها أنها أحادية لغوية فرنسية، هذا ما توضحه مثلا أن كل المواد العلمية والتقنية تدرس بالفرنسية، وبالخصوص في التعليم الجامعي والمدارس العليا. ويطلق الفاسي الفهري (2003) على هذه الوضعية اللغوية مصطلح «التشقق اللسني» الذي يضفي الشرعية على الاهتجار، بحيث تتحول عامة الأطر والمواطنين إلى منتظرين للهجرة أو مهاجرين محليين غير مندمجين في محيطهم الاجتماعي (الفاسي الفهري، 53 ـ 52. 10 : 2003).

إن انعدام التحقق الفعلي للسيادة الثقافية يجسد الاستهتار الوظيفي باللغة الوطنية قبالة الهيمنة الواضحة للغة الأجنبية.

1-3 ـ 2. التعددية اللغوية

تتمثل التعددية اللغوية Multilingualism في وجود وضعية لغوية ثلاثية تتضمن اللغة الأم واللغة العربية واللغة الأجنبية. وتسود اللغة الأم في الحياة العائلية والاجتماعية، بينما تستعمل اللغة الكلاسيكية في العملية التعليمية مع توظيف الدارجة أحيانا، وتشبه اللغة الأجنبية برمزية التفوق الحضاري. ويمكن نعت هذه الوضعية بأنها تمثل تلوثا بيئيا لغويا خطيرا.

وغالبا ما يتم النظر إلى اللغة العربية باعتبارها لغة للدين، حيث لا يتحرج مثقفو المغرب العربي في نعتها بـلغة التأخر، بينما تمثل اللغة الأجنبية ـ الفرنسية مثلا بالمغرب ـ لغة للخبز، أي لغة للترقية الاجتماعية. ويدعم هذا الطرح أن أنصار التعريب أنفسهم يكونون أبناءهم عموما في مدارس فرنكفونية (غرانغيوم، 83 ـ 82 : 1995).

2. اقتراحات وحلول

أمام هذه المعيقات اللغوية، يقترح الفاسي الفهري (2003) حل مشكل التعليم التعددي للغات في إطار نموذج تعليمي تدرجي متزن ينبني على التفريق بين سن مبكرة للاكتساب يتمكن فيها الطفل من اكتساب اللغة الوطنية الرسمية، ومن حل مشكل الازدواج عن طريق ضرب من الإغماس Immersion، وسن لاحقة يتعلم فيها اللغات الأجنبية في مرحلة متأخرة (ابتداء من الثانية عشرة أو التاسعة في أحسن الظروف) لأغراض

وظيفية. وهذا ينبغي ألا يؤدي إلى تمزق مجتمعي (ينفي الأرضية الوطنية المشتركة)، ولا إلى «تعدد لسني» Multiglossia على طريقة شارل الخامس، الذي أقر بأن الإسبانية يجب أن توظف في مخاطبة الإله، والإيطالية في الحديث إلى النساء، والفرنسية في الحديث إلى الرجال، والألمانية في التوجه إلى الجياد (الفاسي الفهري، 1999: 2 و2003: 18 ـ 19).

إن معالجة الازدواجية اللغوية والتعددية اللغوية السالبة لا يمكن أن تتحقق إلا بعد الإقرار الواقعي بالفاعلية الوظيفية للغة العربية ودورها في إرساء قواعد التقدم الحضاري والسبق الثقافي.

وفي هذا السياق، ينبغي تجاوز مشكل تعميم اللغة العربية عبر المواد، حتى لا يحدث انفصام نفسي ولغوي في شخصية الطفل المتعلم، الذي يدرس العلوم الدقيقة باللغة الأجنبية، والعلوم الإنسانية باللغة العربية.

وفي الأخير، نعرض لتصور الفاسي الفهري (2003) لسياسة لغوية عصرية ونابعة من البيئة الوطنية تقوم على الدعامات الآتية:

- إقامة لغة رسمية عصرية شاملة وذات أساس هُوي.
- تبني تعدد لغوي تراكمي مدعوم ذي بعد وظيفي، مع لغتين أجنبيتين ميزيتين (لا لغة واحدة).
- تنوع مرتبط بالأرض ودعمه.
- السماح بتعدد لسني هُوي توافقي، توازيه بنية لسانية مدعومة (الفاسي الفهري، 56 : 2003).

إن هذه السياسة اللغوية البديلة تقوم على أساس اللغة الوطنية ومبادئ الهوية الثقافية، وتبني تعدد لغوي وظيفي لا يؤدي إلى التشقق اللسني.

خاتمة

تلعب اللغة دورا مهما في تحقيق التنمية الحضارية وترسيخ الهوية الثقافية، وبلورة نمط التنشئة الاجتماعية للطفل.

نظرا لهذه المكانة الخطيرة التي تحتلها اللغة، وبغية تجاوز المعيقات التي تقف حاجزا أمام دور تعليمي تنموي للغة العربية، فقد تم اعتماد المقترح القائم على التعريب المدعوم بتعدد لغوي وظيفي سعيا إلى وضع أسس لاستقرار لساني متزن.

الهوامش

(1) تمام حسان في كتابه : اللغة العربية: معناها ومبناها.
اقتبسه بوشوك المصطفى بن عبد الله (1982) في مقاله: « التواصل كظاهرة تعليمية »، ص. 121.

المصادر والمراجع

1 ـ باللغة العربية

ـ بوشوك، المصطفى بن عبد الله (1982): «التواصل كظاهرة تعليمية»، مجلة الدراسات النفسية والتربوية، ع.1، منشورات كوثر، يناير 1982 الدار البيضاء.

ـ الصوري، عباس (2005): «اللغة بين الاكتساب والتعلم»، أعمال ندوة «تعليم اللغات، نظريات ومناهج وتطبيقات»، 22 و23 و24 أكتوبر 2002، سلسلة الندوات، ع. 15، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، مطبعة آنفو ـ برانت، فاس.

ـ غرانغيوم، جليبر (1995): اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي. ترجمة: محمد أسليم، الفارابي للنشر، مطبعة سندي، ط. 1، مكناس.

ـ الفاسي الفهري، عبد القادر (1999): «اكتساب اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد»، مجلة أبحاث لسانية، مج. 4، ع. 1 ـ 2، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، دجنبر 1999، الرباط.

ـ الفاسي الفهري، عبد القادر (2003): اللغة والبيئة. كتاب الجيب، ع. 38، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

2 ـ باللغة الأجنبية

- Bouton, Charles (1979): La linguistique appliquée. Presses Universitaires de France, 1reéd., Paris.